الأهرام

المصدر : الحياه

التاريخ : ٦ نوفمبر ٢٠٠١

عبدالله أنس رفيق 'أسد بانشير' يروي لـ'الحياة' فصولاً من تجربته الأفغانية (الحلقة الأخيرة)

سقط نظام نجيب الله في كابول فانفجر الصراع بين حكمتيار ومسعود

□ يروي عبدالله أنس في الحلقة الثامنة (الأخيرة) من تجربته الأفغانية قصة سقوط كابول وانهيار حكومة نجيب الله وانفجار الصراع بين المجاهدين على السيطرة على العاصمة الأفغانية.

□ *إعداد كميل الطويل*

■ عندما خرج الروس في ١٩٨٩ بقيت امام المجاهدين التركة الثانية، تركة الشيوعيين وحكومتهم بقيادة نجيب الله. وهذا لم يكن رئيساً يُستهان به. كانت للرجل منذ ايام الجامعة وايام الطلبة، هيبته ومكانته، حتى وإن كان شيوعياً. كان خطيباً مفوهاً وعلى جانب من الذكاء لا يستهان به كما يصفوه عارفوه. لم يكن شخصاً عادياً. فهو على رغم خروج الروس وما احدثه ذلك من انكسار في معنويات الحزبيين الشيوعيين في افغانستان، استمر في الحكم يقاوم ثلاث سنوات والبلد كله خارج عليه، مما يدل على انه لم يكن هيّناً وسهلاً، على رغم انه شيوعي وعلى باطل.

لعب أوراقاً كثيرة: ورقة التفاوض مع باكستان مباشرة، وورقة إعلان وقف إطلاق النار من أجل حقن الدماء. وأعلن بعض المراسيم بينها إعادة الاعتبار إلى الدين الإسلامي والعمامة وتخصيص مساجد في كل المؤسسات الحكومية. لعب اوراقاً عدة سمحت له بالبقاء في الحكم ثلاث سنوات اخرى.

لكن سقوطه في النهاية كان حتمياً. وشهدت الأيام والأسابيع التي سبقت هذا السقوط سباقاً بين مسعود ومبعوث الأمم المتحدة الذي كان يحمل طرحاً لحل المشكلة بإقامة حكومة موسعة يشترك فيها نجيب الله من الداخل بنسبة معينة، والقيادات الموجودة في الخارج بمن فيها المجاهدون الافغان. ولقي هذا الطرح موافقة نحو ٨٠ في المئة من مختلف الأطراف بمن فيهم غلب الدين حكمتيار. وطلب المبعوث الدولي من المجاهدين ان يعيّنوا ممثلين لحضور جلسات لتسهيل ترجمة هذه الفكرة التي كانت، من الناحية المبدئية، مقبولة ووافق عليها برهان الدين رباني ويونس خالص، لكن عبد الرسول سياف اعترض عليها ودخل جلال اباد بغية التحضير لمقاومة هذه الحكومة التي تاتي من الخارج. لكن حكمتيار ومحمد نبي وغيلاني ورباني كانوا موافقين عليها.

في ذلك الوقت بالضبط بدأت الأنباء تاتي من داخل افغانستان عن انهيار النظام في أيدي احمد شاه مسعود. بدا الانهيار في ١٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٩٢ عندما تمرد الجنرال عبدالمؤمن المسؤول عن المنطقة الحدودية حيرتان الجسر الرابط بين الاتحاد السوفياتي ومزار الشريف والممر الذي تدخل منه معظم الإمدادات للنظام. كان المسؤول عن المنطقة. وقد ارسل اليه مسعود فوراً رسالة يقول فيها: «انا فتك التي تؤوي اليها»، أي اعتبر نفسك بحمايتنا. وبعد شهر سقطت ولاية سامنغان، الولاية الثانية في الشمال الأفغاني. وفي ١٨ آذار (مارس) هاجم المجاهدون ولاية مزار الشريف مستغلين الانهيار. وبسبب ذلك سقطت سامنغان وقبلها الجنرال عبدالمؤمن الذي كان يسيطرعلى ممر سالانغ، شريان الحياة الذي تصل منه الإمدادات إلى الحكومة الشيوعية (حيرتان).

وفي ٢٠ آذار اجتمعت كل الفصائل في ولاية مزار الشريف وأعلنت سقوط الولاية نهائياً في أيدي المجاهدين. واستمرت الأوضاع على هذه الحال الى ١١ نيسان (ابريل)، يوم تلقى نظام نجيب الله ضربة لا تقل خطورة عن تمرد الجنرال عبدالمؤمن. إذ سقط ممر سالانغ في يد مسعود. وهذا الممر كان شريان الحياة الثاني للنظام.، بعد حيرتان. بعد ذلك بثلاثة ايام سقطت قاعدة باغرام الجوية، اكبر قاعدة عسكرية في البلاد بيد مسعود ايضاً... وهكذا بات المجاهدون على بعد ٧٠ كلم عن كابول.

واكب هذه الأحداث كلها صراع رهيب في إسلام آباد على الحل السياسي بقيادة الأمم المتحدة وموفدها بينان سيفان. حتى اطلقت الصحافة الباكستانية آنذاك شعار من

www.ethraadl.com

إثراء المعارف الرقمية

يسبق حصان بينان سيفان أم حصان أحمد شاه مسعود. وكان موفد الأمم المتحدة يسعى في تلك الفترة الى التوصل الى حل يقوم على الحصول على قائمة من خمسة اشخاص من داخل كابول، ومجموعة اخرى من الذين يعيشون في الغرب، ومجموعة من المهاجرين الذين يعيشون في باكستان. وكان الهدف من ذلك تشكيل مجلس يُشرف على المرحلة الانتقالية والغاية: ١- إعادة الأمن والسلم، ٢- إعادة المهاجرين، و٣- وضع مسودة لدستور افغاني. وبدأ زعماء الجهاد في بيشاور (حكمتيار، رباني، خاص، ومحمد نبي وغيرهم) في الاتفاق على القائمة التي لم يعارضها سوى عبد رب الرسول سياف.

'قررنا تسليمكم السلطة'

بعد ذلك بيومين جاء عبد الوكيل، وزير خارجية حكومة الدكتور نجيب الله، في طائرة هليكوبتر واجتمع بمسعود وقال له: «قررنا تسليمكم السلطة. لكن لنا شرطاً واحداً، وهو ان تعتمدوا احزابنا الشيوعية في ظل حكومتكم». فاجابه مسعود: نحن نجاهد ٢٥ سنة من اجل ان نعترف باحزاب شيوعية؟ نحن على ابواب كابول: إما ان تسلّموا السلطة وإما ان ندخل بالقوة. فقال عبد الوكيل: «اعطني فرصة يومين لأعود الى كابول واناقش الأمر مع «الرفاق». وعاد بالفعل الى العاصمة في ١٦ نيسان، اي في يوم مجيئه نفسه. بعد المغرب جمع نجيب الله اعضاء حكومته وابلغهم انه سيذهب الى مقر الأمم المتحدة في كابول ويلجأ اليه، معلناً تخليه عن الحكم في ١٦ نيسان.

كنت أتابع كل تلك التطورات من بيشاور باللاسلكي مع مسعود. لم يكن احد يُصدق ان الانهيار في كابول قد وقع. كنت اذهب الى الأصدقاء واقوله لهم إن مسعود اخبرني بان النظام سقط وانه على ابواب العاصمة، لكنهم يرفضون التصديق ويتهمونني بالمبالغة.

طلب عبدالوكيل من مسعود ان يمهله يومين ليعود بالجواب. لكنه لم ينتظر يومين. ذهب في ١٦ نيسان وعاد في اليوم التالي مباشرة الى مسعود. وعندما نزل من الهليكوبتر رفع يده والبسمة على شفتيه. وقال لأسد بانشير: النظام الذين تقاتلونه استسلم لكم نهائياً. كنا ننتظر منكم ان تسمحوا لنا باحزاب، لم نعد نريد ذلك. لم تعد هناك حكومة في كابول.

واخبر مسعود زعماء المجاهدين في بيشاور بان النظام سقط. لكنهم كانوا يرفضون التصديق. وتحدث إليه باللاسلكي برهان الدين رباني ويونس خالص وصبغة الله مجددي. وقال لهم ان النظام «خلاص سقط» ولا داعي لكي تتابعوا جهودكم عبر الموفد الدولي. النظام في كابول يسلّم إليكم السلطة.

لكن التنافس كان دائماً بين مسعود وحكمتيار، وهما الوحيدان اللذان كانا يملكان اتصالات داخل النظام. وعندما سمع زعيم الحزب الاسلامي بالخبر طار مباشرة الى لوغر، وهي ولاية حدودية مجاورة لكابول، على رغم انه كان موافقاً في بيشاور على مناقشة مشروع تشكيل حكومة موسعة، ولم يكن يعرف ان النظام في كابول انهار. لذلك فوجئ وتوجه فوراً الى لوغر حيث كان هناك جنرال يرتبط به هو الجنرال رفيع. وساله عن الوضع فاجابه «ان جماعة مسعود كانوا أول الداخلين الى كابول وقد سقط النظام في أيديهم ولا يمكننا ان نفعل شيئاً الآن».

في تلك الفترة وصلت مجموعة من العلماء والدعاة من العالم الإسلامي، لأن الأمر عظيم وبالتالي قد يحدث اقتتال وفتن كبرى. جاءت المجموعة للمشاركة في تخفيف المفاسد التي يمكن ان تحصل. وقام اتفاق على تعيين صبغة الله مجددي (رئيس حزب الانقاذ الوطني) رئيساً موقتاً لمدة ٦٠ يوماً، ويخلفه برهان الدين رباني لأربعة شهور. على ان يكون وزير الدفاع أحمد شاه مسعود، وحكتيار رئيساً للوزراء، والشيخ سياف وزارة الداخلية برئاسة أحمد شاه أحمد زي، ووزارة الخارجية لغيلاني. لكن حكمتيار لم يرض بالتشكيلة. وتوجه الى لوغر لعله يستطيع ان يُحرز نصراً بمفرده في داخل كابول. وعندما وصل الى العاصمة كانت الخطة التي اتفق عليها المجاهدون اهتزت، لانها كانت تقضي بان يدخل المجاهدون يداً واحدة الى كابول وتكون الوزارات السيادية قُسمت بين الأحزاب الرئيسية. عندما وصل حكتيار الى لوغر كان وفد المصالحة (يضم مجموعة من مشايخ العالم الإسلامي) قد فشل في اقناعه.

من ١٩ نيسان الى ٢٣ منه اقام مسعود على مشارف كابول لا يريد دخولها فيكون ذلك سبب مفسدة بين المجاهدين. كانت ساقطة اصلاً ونجيب الله مقيم منذ عشرة ايام في مبنى الأمم المتحدة، والدولة بلا رأس ومستسلمة ترفع الاعلام البيض. وكان مسعود يحاول في تلك الفترة اقناع قادة المجاهدين بتشكيل حكومتهم. ظلوا ١٥ يوماً حتى صدّقوا أن العاصمة سقطت وشكّلوا حكومتهم. ودخل اول وفد كابول برئاسة صبغة الله مجددي في ٢٧ نيسان. من ١٦ نيسان إلى ٢٧ منه وكابول مثل العروسة تنتظر مسعود لكنه رفض دخولها لئلا ينفرد بالنصر لوحده. أراد أن يعطيه للمجاهدين في ساحة بيشاور وان يدخلوا كلهم متفقين يداً واحدة لئلا تسيل الدماء بينهم. فلو استفرد واحد منهم بها لأوغر صدور الآخرين واثار فيهم الحسد. كان شرفاً يتوق إليه كل واحد منهم، لكن هذا الشرف قد يتحوّل مفسدة وتسيل بسببه الدماء.

في ٢٣ نيسان استدعى حكمتيار إلى لوغر الجنرال رفيع (أحد نواب نجيب الله، رئيس الجمهورية آنذاك)، وساله عن حقيقة ما يجري من انهيار داخل كابول. فاكد له ان الانهيار وقع فعلاً.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

وعندما فشل وفد العلماء في اقناع حكمتيار بالعودة الى بيشاور ليدخل مع زعماء المجاهدين الى كابول، اقترحت فكرة مفادها ان تُنظم مكالمة لاسلكية من بيشاور بين الرجلين اللذين كان احدهما في لوغر والثاني في باروان. وجرت المكالمة الآتية بينهما وكنت استمع اليها

في مركز اللاسلكي التابع لمسعود في بيشاور. وكان ممن دُعي ليكون شاهداً تاريخياً على هذه المكالمة القاضي حسين احمد امير «الجماعة الإسلامية» الباكستانية (انظر نص المكالمة في مكان اخر في الصفحة).

وفد المجاهدين

عندما دخل صبغة الله مجددي كابول دخل وحده ولم يرافقه حكمتيار. دخلها بوفد مشترك من جميع المجاهدين. بدأ مسيرته نحو العاصمة في ٢٧ نيسان. بات ليلته خارجها ثم دخلها في اليوم التالي وتسلّم الحكم في ٢٨ عندما أجريت مراسيم نقل السلطة اليه في مبنى وزارة الخارجية.

في الثاني من ايار (مايو) تشكّلت حكومة المجاهدين الجديدة. في الخامس من الشهر نفسه، دخل وفد زعماء الجهاد بفصائلهم المختلفة وعلى راسهم البروفسور رباني ومولوي محمدي والبروفسور سياف وآية الله محسني، بعدما كانوا اعلنوا حكومتهم في بيشاور.

لم يدخل حكمتيار كابول إلا بعد ٣ سنوات. وهذه عبرة للمسلمين. وكما قال النبي (صلعم): السعيد من اتعظ بغيره والشقي من اتعظ بنفسه. ونقول على المسلمين ان يتعظوا بهذه التجربة. بعد مقاومة شرسة، شريفة ونضال طويل دام كل هذه السنين اخرجوا من بلدهم بأيديهم الاتحاد السوفياتي، اقوى قوى الأرض. لكن هذه المقاومة الشريفة عندما واجهت اختبار البناء... شاهدت كيف تتبخر كل الأماني التي علّقها الناس عليها. اظن ان اكبر درس يُستفاد من هذه المصيبة، درس تعلمته انا شخصياً: ان فترة المقاومة تختلف كلياً عن فترة الاستقرار والبناء. فمرحلة المقاومة يمكن ان ينضم اليها كل من هب ودب. لكن مرحلة الاستقرار والبناء تحتاج الى النزهاء والعقلاء. فالاستقرار السياسي أكثر ضماناً من الحسم العسكري لأن الخريطة الحربية موقتة والخريطة السياسية المستقرة دائمة. فالانتصار الحربي متغيّر، اما الاستقرار السياسي فثابت. وعلى الأمة واحزابها على اختلاف مشاربها ان تعمل من أجل ضمان الاستقرار السياسي الذي لا يمكن ان يأتي إلا إذا تعلّمت الطبقة السياسية سياسة التوافق: ان من أرادها كلها حُرم منها كلها... ماذا حل بالمجاهدين؟ بعدما دخلوا كابول فاتحين صاروا واحداً لاجئاً في إيران والآخر نازحاً بين طاجيكستان واوزبكستان. الجميع انتهى بهم الأمر مشردين مشتتين. هذا اكبر درس وعبرة وعلى المسلمين ان يتعلموا.

الدخول الى كابول

عندما دخلت كابول، كنت من اوائل العرب حتى أنني سبقت وفد المجاهدين إليها، لأنني كنت على اتصال مع مسعود باللاسلكي. دخلت مع مسلم، احد قادته. دخلنا بسيارة. بعد ذلك بدأت اتهيأ نفسياً لمغادرة افغانستان نهائياً لأنني لم أعد ارى مبرراً لوجودي في هذه المنطقة.

كان العلماء يقولون إنه فرض علينا ان نقف مع اخواننا في افغانستان، فوقفنا معهم. وها إن الروس قد خرجوا، والنظام الشيوعي قد سقط. لذلك بدأت انظر الى جدوى وجدوي هناك، لم أعد مقتنعاً بالبقاء. خصوصاً انني كنت نزلت سنة ١٩٩٠ الى الجزائر وسجنت هناك اربعة ايام على رغم ان الجبهة الإسلامية للانقاذ كانت في اشد عنفوانها وكانت تحرك الشارع. ومع ذلك لم يشفع لي ذلك امام المخابرات الجزائرية التي اخذتني من الطائرة بعد ان عصبوا عيني فسجنت أربعة ايام وحجز جواز سفري لمدة شهر. وكان الشيخ عباسي مدني قال لي في إحدى الجلسات بيننا: يبدو ان دورك في افغانستان قد انتهى ويجب ان تبدأ رحلة العودة الى الجزائر.

كانت الفكرة تطرق ذهني منذ ١٩٩٠. وعندما دخل المجاهدون كابول في ١٩٩٢ صارت قضية مغادرتي افغانستان قناعة راسخة، على رغم انه لم يكن ينقصني شيء لو بقيت هناك. كان

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

مسعود الرجل القوي في الحكم الجديد الذي ورث نظام نجيب الله. لم تكن تنقصني سيارة أو بيت. وأذكر انني قصدت مسعود يوماً وكان يسكن في منزل في العاصمة، وأسريت إليه أنني افكر في نقل الأولاد من بيشاور الى كابول، فلم يتردد لحظة وقال: هذا البيت بيتك ساخليه لك لتقيم فيه. وتابع ممازحاً: ولكن لا بد لك من أن تأخذ حذرك. فحكمتيار يستهدف هذا البيت بصواريخه لأنه قريب من قصر الجمهورية.

لم يكن ينقصني شيء لو بقيت في افغانستان. ومع ذلك قررت مغادرتها. كنت اعايش مشكلة بعدما انقطعت بي السبيل: لم تعد لي علاقة بافغانستان لأنني لم أعد مقتنعاً بالقضية فيها ولا مبرر لوجودي. ولم اكن مقتنعاً ايضاً بباكستان، لأن بيشاور تحولت بين ١٩٩٢ و١٩٩٣ ساحة موبؤة تعج بالغرائب العجائب، فبعدما كان الشاب فيها متعلقاً بالله وبالقضية تحولت مكاناً لم ار مثله... حتى أن هناك اردنياً او فلسطينياً اعلن انه «خليفة المسلمين» وفتح مضافة وقال: «من لم يبايعني فهو اثم».

...وتاسست «القاعدة» واصبح لها نشاطها الخاص المستقل بها، وتفرق بعض المجاهدين، وكثرت المضافات، حتى بدات تلمس وجود أجهزة الاستخبارات العربية وتغلغلها في وسط الساحة الإسلامية في بيشاور. وبينما كنت يوماً جالساً جاءني مسؤول المضافة القيّم على خدمة الشباب العرب في بيشاور وقال لي: من بين الجوازات الموجودة عندنا هناك جواز لضابط. إذ كان الشباب العرب عندما ياتون يتركون جوازاتهم في إدارة المضافة. رايت بعيني جواز رائد استخرج قبل اقل من عام. وفي الواقع تحولت بيشاور في الأيام الأخيرة ساحة موبؤة تصدر التعكير، باتت لا تُطاق، وتبخر الهدف الأسمى الذي من أجله التقينا.

وجاءني يوماً احد الاخوة، وائل جليدان امين رابطة العالم الإسلامي، وناداني: يا أخ عبدالله، قررت الرحيل الى إسلام آباد، صارت هذه (بيشاور) ساحة موبوءة ولم يعد فيها ما يُفرح. انا انصحك بأن تغادرها وترافقني. استحسنت الفكرة وانتقلت الى إسلام آباد حيث مكثت عاماً منقطعاً عن كل شيء.

ثم قُدّر لي أن أرحل، فاعددت العدة وسافرت الى فرنسا بعدما حصلت على تاشيرة من كابول بوساطة من السفير الفرنسي هناك. ذهبت الى باريس بإقامة قابلة للتجديد كل ثلاثة شهور على اعتبار انه لا يمكنني الرجوع الى الجزائر بسبب الأزمة التي اعقبت الغاء الانتخابات التي فازت فيهفا الجبهة الإسلامية. لكنني، مع الاسف، اقمت في فرنسا ستة شهور أخرجت منها مكبّل اليدين بالحديد بدعوى انني اشكل خطراً على امن بلادهم (على رغم تبرئة المحكمة لي). اخرجوني منها مكبّلاً الى باكستان. وبعد شهر اتصل بي الشيخ عبدالباقي صحراوي، رحمه الله، وهو عضو مؤسس في الجبهة الاسلامية للإنقاذ، وقال لي انه التقى مسؤولين في السلطات الفرنسية وهم يعتذرون وقد اخطاوا بحقي عندما قالوا انني اشكل خطراً على أمن اراضيهم. ونقل إلي عنهم انه يمكنني العودة في اي وقت، ويمكنني الحصول على تاشيرة من اي سفارة من سفارات فرنسا. لكن ما حزّ في نفسي انهم اخرجوني مُكبلاً والأصفاد في يدي، لذلك لم استسغ العودة. وها أنا أعيش في بريطانيا اليوم.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية